د. محمد عطية متولي
إمام وخطيب أول بوزارة الأوقاف

قواعد في أدب الحوار

أفرغت يا أبا الوليد

من آثار قدرة الله تعالى ورحمته وحكمته اختلاف ألسنة الناس وألوانهم ومداركهم وعاداتهم وغير ذلك، لكن من الناس من يعجز عن الانتفاع بهذه النعمة كما يعجز عن الانتفاع بغيرها من النعم، فبدلا من التكامل -الذي تقوم به الأمم- يحدث التنازع الذي نهانا رب العزة والجلال عنه ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦) التنازع سبب للفشل والفشل سبب لذهاب القوة، والاختلاف الذي يخرج عن الأطر الشرعية يفضي إلى التنازع الذي يسر العدو ويحزن الصديق ويبقى الاختلاف سنة كونية، لكن كيف ندير اختلافاتنا على المستوى العلمي وعلى المستوى الاجتماعي؟ كيف نؤسس لحوار لا يفسد للود قضية ولا يصل بنا إلى القطيعة؟ حوار تعرض فيه وجهات النظر دون أن تتعرض للتشويه أو للانتقاص، فيما يلي مجموعة من القواعد ترشد من الحوار وتحفظ الود بين المتحاورين وإن لم تتفق وجهات نظرهم:

القاعدة الأولى: الرغبة العميقة في الوصول إلى الحق مهما كلف المتحاورين من جهد فإن حب الغلبة يمحق بركة الحوار ويحمل صاحبه على البغي والعدوان قال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب -يعني: كتبه- على ألا ينسب إلي منه شيء».

القاعدة الثانية: وجود أسس ثابتة متفق عليها يتحاكم إليها المتحاورون ويعودون إليها عند التنازع.

القاعدة الثالثة: تحرير محل النزاع:

توضيح الأمور المتفق عليها والنقاط التي سيتم النقاش حولها توفيرا للوقت والجهد

القاعدة الرابعة: طرح القضية محل الحوار على بساط البحث وإتاحة الفرصة كاملة لكل طرف ليعرض وجهة نظره مهما بدا عوارها ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فـ «ذات يوم قال عتبة بن ربيعة -وكان سيدا حليما- وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منها بعضها ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فيما قال له عتبة، وفيما عرض عليه من المال والملك وغير ذلك، فلما فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، فاسمع مني، قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ (فصلت:١-٣) «فمضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها ثم قال: سمعت يا أبا الوليد؟» قال: سمعت، قال: فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ.

وروينا هذا في حديث جابر بن عبدالله وفيه من الزيادة فيما حكى عتبة لأصحابه قال: فأجابني بشيء والله ما هو سحر ولا شعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ (فصلت:١-٢) حتى بلغ ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١٣) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

هذا حوار دار بين إمام من أئمة الكفر وبين داعي الهدى محمد ﷺ، عرض فيه عتبة أمورا لا يقبلها مسلم، فكيف يتيح له النبي ﷺ الفرصة الكاملة أن يعرض عليه ترك بلاغ رسالة الله، لكن النبي ﷺ يعلم طبيعة رسالته وطبيعة النفس الإنسانية، فاستمع لكلامه حتى النهايه وبلا مقاطعة، بل سأله إن بقي في نفسه كلام لم يقله، بعد كل هذا الكلام الذي لن يقبله رسول الله ﷺ ولن يقبل بعضه.

وكأن النبي ﷺ يقول له قد استمعت إليك حتى فرغت، فاستمع مني كما استمعت منك، وتلا النبي ﷺ كلام الحق سبحانه، وللحق سلطانه وصولجانه، يصل إلى أعماق القلوب إذا تجردت من الهوى، وتخلصت من العصبية يتلو النبي ﷺ القرآن فيأخذ بعقل عتبة بن ربيعة، وتتفتح آفاق نفسه حتى ينصت ويلقي بيديه خلف ظهره معتمدا عليهما ويظل النبي ﷺ يتلو الحق الذي نزل إليه من ربه، وعتبة يسمعه ولا يقاطعه، ويتابع باهتمام بالغ، كما تدل على هيئته حتى يفيق عتبة على كلمة النبي ﷺ: سمعت يا أبا الوليد؟ نعم سمع وأخذ القرآن بلبه وقلبه معا، عرض عتبة ما عنده، وعرض النبي ﷺ ما عنده، وترك لعتبة الحرية الكاملة حين قال له: أنت وذاك.

عاد عتبة إلى قومه الذين ينتظرون تغييرا في موقف النبي ﷺ منهم، فالعروض سخية لا يرفضها طالب الدنيا أبدا، لكنهم وجدوا التغير باديا على وجه عتبة، فقال: بعضهم لبعض «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به» نعم تغير تغيرا كبيرا، بدا على قسمات وجهه، كما بدا في كلامه، بل إن التغير ليصل إلى مداه حين يقتنع بما قاله النبي ﷺ من كلمات الحق، ويبشر بأن هذا الدين -الذي ذهب قبل قليل لكي يسكت صوته- سيصل خبره إلى الآفاق حين قال: «ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ».

هذا الحوار الراقي الذي استقبل كل طرف ما عند الطرف الآخر، وبدأت قوة الحق الذاتية التي لا تحتاج إلى صوت عال يسفه الرأي الآخر، ويتهمه بشتى التهم، دون أي دليل أو شبه دليل.

القاعدة الخامسة: ينبغي أن تبقى الصلة مستمرة بين المتحاورين وإن لم يصلا إلى رأي يتفقان عليه في

المسأله، قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: «يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة»، فكثير من النقاشات الحادة أو الهادئة تنتهي بقطيعة معرفية وعداوة شخصية واتهامات لا تليق، لكن ينبغي للمحاور الرشيد ألا يقطع حبل الود فوجهات النظر تتغير مع مرور الزمان ورؤية أحداث ومعلومات غابت وقت الحوار فلا ينبغي أن نقطع الصلة بين من نحاورهم بكلمة نابيه أو اتهام قد تثبت الأيام خطأه، حتى إذا عاد أحد المتحاورين إلى رشده وأدرك ما كان غائبا عنه، لم يستح من كلمة قالها تركت أثرها السيئ في قلب محاوره.

القاعدة السادسة: إذا سادت البغضاء بين المتحاورين ضاقت الدنيا عليهم وانتقلوا من إمكان العيش المشترك إلى التنافر والعداوة والبغضاء وقطع ما أمر الله به أن يوصل قال محمد بن يزيد النحوي: «أتيت الخليل، فوجدته جالسا على طنفسة صغيرة، فوسع لي، وكرهت أن أضيق عليه. فانقبضت، فأخذ بعضدي وقربني إلى نفسه، وقال: إنه لا يضيق سم الخياط بمتحابين، ولا تسع الدنيا متباغضين). حقا لا تتسع الدنيا لاثنين يبغض أحدهما الآخر مع ضخامة مساحتها وملايين البشر والمخلوقات الذين يعيشون عليها.

القاعدة السابعة: الانصاف الذي يفرض على المسلم أن يقر بالحق لخصمه مهما كان حجم الخصومة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨) ولا يحمل المسلم وجود بعض الخطأ في الكلام أن يصف الكلام بجملته بالخطأ والرأي بالسفاهة، بل يفصل بين الحق والباطل. «جلس لبيد بن ربيعة في مجلس من مجالس قريش وهو ينشدهم، فجلس عثمان معهم فقال: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. فقال عثمان: صدقت.

ثم قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل. فقال عثمان: كذبت؛ نعيم الجنة لا يزول». بيت واحد وصف عثمان رضي الله عنه قائله بالصدق والكذب، ولكل وصف محله.

القاعدة الثامنة: فتح آفاق الحوار يعتمد المحاور الجيد على فتح أبواب الحوار على مصراعيها، ودعوة من يحاوره إلى السعي المشترك، والبحث المخلص عن الحق ليلتزما جميعا به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤). قال الفخر الرازي «هذا إرشاد من الله لرسوله ﷺ إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها، وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ، وأنت فيه مخطئ يغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم، فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق، فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز، فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر، ويترك التعصب، وذلك لا يوجب نقصا في المنزلة، لأنه أوهم بأنه في قوله شاك، ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون».

لعلهم يتواصلون

١- عرض نماذج من حوارات المختلفين في مجال الفكر والفقه من سلف الأمة وخلفها لتتضح الصورة المشرقة لأخلاق المحاور المسلم الذي يسعى إلى الحق ويجليه دون جلبة أو صياح والذي يخضع للحق متى ظهر له.

٢- انتقال آداب الاختلاف وأخلاق الحوار من دائرة التنظير ومن صفحات الكتب إلى ساحات الحوارات الصحفية والإعلامية والمناظرات مع التدريب عليها برعاية من يقتنع بالحوار ويراه الطريق الوحيد للوصول إلى الحق ولجمع الشمل.

٣- تقديم نماذج عملية راقية لحوار يستوفي الشروط اللازمة لإتمام حوار بناء ليس بالضرورة أن يغير أحد الطرفين موقفه، بل يكفي أن يطلع على بينات الطرف الآخر وحججه في جو يسوده الاحترام المتبادل والسعي الحثيث للوصول إلى الحق.